الأستاذ الدكتور معاون وزير التعليم العالي والبحث العلمي

الأستاذ الدكتور رئيس مجمع اللغة العربية

السادة الأساتذة في جامعة دمشق، وكلية الآداب، وقسم اللغة العربية، والسادة أعضاء المجمع

أسرة أستاذنا الدكتور وهب رومية، وأهله ومحبّوه وطلابه

الحضور الكرام

هذا موقفٌ جللٌ، ما حسَبتُ له حسابًا، غيرَ أن غائلةَ الأيامِ ألزمتني قَبولَهُ، وفرضت عليَّ أن أتقوّى، لأقفَ أمامَكُم مؤبّنةً أستاذي، وأستاذَ الأجيال، الأستاذَ الدكتور وهب رومية، رحمه الله تعالى، فإذا بكلمات الرثاء تتضاءل، أمام اتّساع آفاق الفَقدِ، وإذا بالبيانِ يستعصي في موقفٍ كالذي أقفُه اليومَ، فمَا أصعبَ معاسَرةَ الكلامِ! وما أقسى الشعورَ بالعجزِ عن الوفاءِ!

والحديثُ عن أستاذي الراحلِ، العلامةِ الناقدِ المجمعيّ، يتشعَّبُ تشعُّبَ معارفِه، ويمتدُّ امتدادَ آثارِه الخالدةِ، ويقتضي المقامُ أن أقيدُه بقيودِ التّلمذةِ، حتّى أضيءَ جانبًا مهمًا من جوانب الشخصيّة العلميّة التي تمتع بها الفقيدُ، في صلَته مع طلَبَتِه، وهو جانب يستحق أن يذكر، لما في ذِكرِه من فوائدَ تتجاوزُ حدودَ الذكرياتِ.

حَظِيتُ بشرفِ الاتّصالِ بالأستاذِ الدكتورِ وهب رومية، مشرفًا على رسالتي لنيلِ درجةِ الماجستير، بعدَ تَوَسُّطٍ من رئيسِ قسمِ اللغةِ العربيةِ وآدابِها آنذاكَ، الأستاذِ الدكتورِ عبد النبي اصطيف، حفظه الله تعالى. وكان الأستاذُ الراحلُ مقلًّا في الإشرافِ، زاهدًا فيهِ، لا ضنًّا منه بالنفعِ والتعليمِ، ولا احتكارًا منه للمعرفة، وحجبًا لها عن طلابها، ولكنّه كانَ ينأى بنفسهِ عن المواضعِ التي يتزاحَمُ عليها الآخرونَ، منهمكًا في أبحاثِه ودراساتِه العميقةِ، فاقتصرَ إشرافُهُ على بعضِ المُعيدين، يفرّغُ لهم من وقته ما يفي بالنظرِ في أعمالِهِم وتوجيهِهِم، وقد قَبِلَ الإشرافَ عليّ نُزولًا عندَ رغبةِ قسمِ اللغة العربيةِ، لمّا كنتُ معيدةً فيه، فقضيتُ بصحبتِهِ ثلاثَ سنواتٍ، كانَ فيها – رحمه الله – نبعًا ثَرًّا، من علمٍ ومعرفةٍ وسَعَةِ اطّلاعٍ، وأفاضَ عليّ من ذلكَ كلِّه، ووجَّهني توجيهًا تربويًا عاليًا، ومهَّد أمامي سبيلَ التفكيرِ النقديّ السليمِ، والبحثِ الجادِّ الذي يُعنى بالجَوهَرِ، ويُعرضُ عنِ السّفاسِفِ، ويَتَغيّا الإتقانَ، فنَهِلْت من مَعينِه ما استطعتُ، ولا أجِدُني ارتويتُ. وليتَ الزمانَ أسعفَ بالمزيدِ، ولكنَّ الأمانيَّ تضليلٌ.

وأحبُّ أن أذكرَ في هذه العُجَالة المعالمَ التي تأسَّسَ عليها منهجُ الأستاذِ الدكتورِ في الإشرافِ على رسائلَ جامعيةٍ تُعنى بدراسَةِ الأدبِ ونقدِه.

كان أستاذُنَا حريصًا على بناءِ باحثٍ مفكّرٍ، لهُ رأيُه المنطقيُّ المستقلُّ، ومعلومٌ أن هذا البناءَ لا يتهيّأُ مكتملًا دُفعةً واحدةً، فلا بدَّ منَ التدرُّجِ، والانتقالِ من الأساسِ الراسخِ المتينِ إلى البناءِ الثابتِ الحصينِ، ولمّا كان – رحمه الله – منظَّمَ الفكرِ، دقيقَ النظرِ، واضحَ الرؤيَا، سديدَ الرأيِ، واسعَ الأُفُقِ، فقدْ أحبَّ أن يغرسَ تلكَ الخصالَ في طَلَبَتِه، فمضى معهُم في تأسيسِ منهجٍ قويمٍ، مبنيٍّ على قواعدَ أصيلةٍ، تضمنُ للباحثِ أن يصلَ إلى نتيجةٍ علميةٍ مقنعةٍ، إذا مَا التزمَها. ويتجلَّى منهجُه بالانطلاقِ، في أيِّ بحثٍ، من فَرَضٍ علميٍّ واضحٍ، ينبغي أن ينهضَ البحثُ بالإجابةِ عن تساؤلاتِه، ليصلَ إلى إثباتِهِ أو إلى نفيِه، معزِّزًا رأيَه – أيًّا كانَ – بالحُجَّةِ والدليلِ والبرهانِ.

ولا يصلُ الباحثُ إلى ذلكَ إلّا إذا اكتسبَ زادًا معرفيًا وافيًا، وكانَ أستاذُنا رحمه الله يُعنى بهذا الزادِ، ويتعهَّدُه بالنَّظَر والرعايةِ، فيوجهُ الطالبَ، قبل الشروعِ في كتابةِ فُصولِ البحثِ، إلى إعدادِ قائمةٍ أوَّليةٍ بأهمِّ المراجعِ التي يحتاجُهَا بحثُه، ثمَّ ينبّه على ضرورة التدرُّجِ في قراءَتِها – أو قراءةِ معظمِها – قراءةً واعيةً، بُغيةَ تأسيسِ قاعدةٍ معرفيَّةٍ واسعةٍ، تكونُ عونًا لهُ في بناءِ أركانِ بحثِه فيما بعدُ. فإذا ما أحاطَ الطالبُ بالجوانبِ النظريةِ التأسيسيةِ، وتثبَّتَ الأستاذُ من علميَّةِ المراجعِ وأهمّيتِهَا، واطمأنَّ إليهَا، سمحَ بالكتابةِ، مُشترطًا على الطالبِ الرَّويَّةَ والأناةَ، وعدمَ التّسرعِ في صوغِ العبارةِ، وإطلاقِ الأحكامِ وتعميمِها.

وكانَ يُعطي الفصولَ المكتوبةَ حقَّها منَ القراءةِ والتمحيصِ، ويقفُ عندَها وِقفاتٍ عميقةً، فلا يدعُ جانبًا من جوانبها يمرُّ من غيرِ نقدٍ، فينظرُ في الآراءِ العلميةِ والأحكامِ المبنيةِ عليها، ويفحصُ مدى مُوافقَتِها حقائقَ المنطقِ، وخلوَّها من التناقضِ، ويتحقَّقُ من أمانةِ الطالبِ في توثيقِ النُّقولِ والاقتباساتِ، ونسبةِ الآراءِ إلى أصحابِهَا، ولا يفوتُه أن ينبّهَ على البِنيةِ النحويّةِ واللغويةِ والأسلوبيةِ، مهتمًا بسلامتِها وفصاحتِها وتماسُكِها وحُسنِ أدائِهَا مقاصِدَها. كانَ يقوّمُ كلَّ ما يقع في المسوَّداتِ، فيدوّنُ تنبيهاتٍ جُزئيةً في هوامشِ الأوراقِ وحواشيها، ثم يجمعُ تلك التنبيهاتِ في نهايةِ الفصلِ أو المقطعِ المكتوبِ، ملخصًا رؤيتَه الكليَّةَ، منبّهًا على مواطِنِ الخللِ والقُصورِ، موجّهًا إلى سُبُلِ تصويبِهَا وتجاوزِها، ليخرج الفصل على النحوِ الأمثلِ، مُشيرًا إلى مكامِنِ الصوابِ ومقاربةِ الحقِّ، مُثنيًا على الجُهْدِ المبذولِ، وحاضًّا على مزيدٍ من الإتقانِ.

ولعلَّ من أكبرِ خسائري – على الصعيدِ الشخصيِّ – في سنواتِ الحربِ التي عصفَت ببلدِنا أنّي فقدتُ بيتي في ريفِ دمشقَ، وخسرتُ مكتبتِي، وفيها مسوّداتُ رسالتي التي خطَّ عليهَا أستاذِي ملحوظاتِهِ القيّمةَ بخطّهِ الأنيقِ.

إنَّ الدقَّةَ البالغةَ التي كانَ يقوّم بها أستاذُنا الفصولَ المكتوبةَ لا تعني – بحالٍ – مصادرةَ حريةِ الطالبِ، وإلزامَه وجهةَ نظرِ المشرفِ، بل كانت باعثًا على مزيدٍ من التبصُّر وإعمالِ العقلِ، والعُزوفِ عن التسليمِ بأقوالِ الآخرينَ – وإن كانوا من المتقدّمين – من غيرِ مناقشةٍ أو محاكمةٍ. لقد كانَ الانفتاحُ العقليُّ،

وتأسيسُ الأحكامِ على قاعدةٍ منطقيةٍ رصينةٍ، أساسَيْنِ من أسسِ المنهجِ العلميّ الجادِّ، يُضافُ إليهِما أمرٌ مهمٌ غايةَ الأهميةِ؛ وهوُ حُضورُ شخصيةِ الطالبِ، وإبداؤُهُ رأيَهُ، مدعومًا بالحُجَّةِ والبرهانِ.

ولم يكنْ يهتمُّ لطولِ المادةِ المكتوبةِ وكَثرتِها بمقدارِ عنايتِه بمضمونِها وجوهرِها، وقدرةِ صاحبِها على التحليلِ والربطِ والاستنتاجِ والحُكْمِ، وأذكر أنني أعدتُ كتابةَ بعضِ فصولِ رسالَتي أزيَدَ من ثلاثِ مراتٍ، إلى أن وصلَتْ إلى المستوى الذي يَرتضيهِ ويُقِرُّهُ.

وكان ينظر بعنايةٍ – تَبَعًا لنظرتِه النقديةِ البصيرةِ – إلى التدرجِ المنطقيّ الذي ينبغي أن يتمتعَ به البحثُ العلميُّ الرصينُ، فالبحثُ بناءٌ محكَمٌ، يتدرج الباحثُ فيه في الانتقالِ من المقدماتِ إلى النتائجِ، مرورًا بجسدِ البحثِ، مُراعيًا في انتقاله التكاملَ والاتّساقَ والانسجامَ، ظاهرًا وباطنًا.

وكان الأستاذُ الراحلُ يطبقُ منهجَهُ بصرامةٍ وحزمٍ، لا يقبلُ تهاونًا، ولا يتجاوزُ عن تقصيرٍ في ركنٍ من أركانِهِ، على أن حزمَه لم يكن يتعارضُ معَ روحِ الإنسانِ فيهِ، فكانت صرامَتُهُ مغلّفةً بلَبوسِ الرحمةِ والحُنُوّ، وكان يجمعُ في شخصِهِ النبيلِ جلالَ المثلِ الأعلى، بهيبتِهِ ووقارِهِ، ورقَّةَ الطبعِ الإنسانيّ وأصالتَهُ وتفرُّدَهُ.

كانَ أستاذي رحمه الله لا يفتأُ يُشجعني، ويستنهضُ همّتي، ويُعربُ عن سعادتِه بكلِ تقدّمٍ أُحرزِهُ، وإن كان طفيفًا. وكنتُ أستشعرُ رِضاهُ عن صَنيعي من نظرتِهِ الأبويَّةِ الحانيةِ، وابتسامتِه التي تدلُّ على لُطفٍ وكرمِ نفسٍ وتهذيبِ طبعٍ.

مضى أستاذنا إلى جوار ربه، بعد أن أرسى فيّ وفي طلابِه منهجًا ثابتَ الأركانِ، ووضعَنا على سبيلٍ لاحبةٍ قاصدةٍ، ونمّى فينا شخصيةً علميةً تسعى في سبيلِ الوصولِ إلى الحقيقةِ. وعزاؤُنا أنه أورثنا آثارًا نفيسةً، ومؤلّفاتٍ غنيةً، يجد فيها طالبُهَا بُغيتَهُ وقصدَهُ، وأنه تركَ فينا خلفًا صالحًا في دراسة الأدب القديم، أستاذتي الفاضلة الدكتورة فاطمة تجور حفظها الله ونفعَنا بها.

خالصُ العزاءِ لأسرةِ الدكتور الكريمةِ، ولطلابِه، وأصدقائِه ومحبيهِ. ولكم طولُ البقاءِ، ممتّعين بدوامِ العافيةِ.